

عن الفكر وعن الالفكر في القرن الحادي والعشرين

عبد الجليل خياطي^{*1}

¹ المدرسة العليا للأساتذة-بوزريعة، الجزائر

تاريخ نشر المقال: 2023 / 07/21

تاريخ إرسال المقال: 2022 / 08 /26

الملخص:

هناك تكنولوجيات كثيرة وقدرات استثنائية جديدة تتزايد في المستقبل، نحن أمام قرن حرج جدا ولا ننكر أنّ الفكر الإنساني وصل بالتكنولوجيا إلى مراحل متقدمة جدا من خلال طرحه للبدايل في مختلف حقول العمل، وتقديمه لحلول كثيرة لبعض المشاكل الحضارية التي عانت منها المجتمعات البشرية عن طريق وضع الاستراتيجيات، وتقديم النماذج التربوية القادرة على ترشيد الأخلاق والأعمال وزيادة وعي الإنسان بما يحيطه وإدراك الفرد لأبعاده ووجوده وعلاقته بالكون وبأخيه الإنسان وقدرته على إخراج الفرد منا من ظلمات الجهل إلى أنوار العلم والفهم، مما يسهل تحقيق الأهداف المرجوة فهل يستطيع الفكر الحفاظ على الموروث الحضاري الجديد والمتمثل في التكنولوجيا المميزة للقرن الحادي والعشرين والبقاء على وتيرة التغيير والإبداع ويرقى إلى فضاءات أخرى جديدة يضمن بها سلامة النوع البشري؟ أم أنّ الفكر يتعطل ونصبح أمام عالم تكثر فيه البلاهة كما يقول ألبرت أنشتاين: "أخشى اليوم الذي ستجاوز فيه التكنولوجيا تفاعلنا البشري فإنّه سيكون للعالم جيل من البلهاء، والبلاهة هنا لا تعني الجهل بل الالفكر الذي تنطوي عليه الأفكار الجاهزة كما يعرفها ميلان كونديرا!

الكلمات المفتاحية: الفكر؛ الالفكر؛ البلاهة.

تصنيف JEL: O14؛ O31؛ Z13.

* المؤلف المرسل: الإيميل: philosophykh14@gmail.com

المقدمة

القرن الحادي والعشرين قرن الطفرات، إنه قرن الاستثناءات، قد تتجلى فيه حضارة إنسانية يعمّها السلم والوئام والصحة الجيدة، كما يمكن أن تتدمر فيه حضارة الإنسان بسمو كل سمات العنف والدمار وتناحر الثقافات بعضها ببعض، ولكي نتحاشى ما هو سلبي في ذلك لابد من التفكير في المستقبل وتوجيهه التوجيه الحسن، فالأجيال اللاحقة -دعنا نقول أطفال اليوم هم أمام تحول عظيم في مجالات عديدة حيث تتوفر لهم فرص كبيرة وتسهيلات متعددة تبسط لهم أمور عيشهم في دنياهم فإما أن يكون لهم فكر فعّال يمدّهم بتصورات وحلول لكل عقبة تعترضهم ويتم استغلال كل هذه الفرص الاستغلال الجيد في بناء حضارتهم المرجوة أم أن الفكر يتعطل ويكون هناك ما يسمى بالالفكر المصاحب لما يسمى الأفكار الجاهزة، التي تقدمها لهم الآلة وندخل في دوامة النمطية والاتكالية ويصبح لدينا مجتمعات الكترونية آلية تنطفئ فيها كثير من القيم والعادات، ولا يمكن تصور أي حضارة ستكون لدينا في المستقبل إن صح التعبير. فهناك من يصور القرن الحادي والعشرين على أنه "قرن النهايات القصوى"¹، لذا يجب التفكير جيداً في هذا العصر فنحن أمام تحولات مخيفة لديك ما يسمى جيل التحول، الانفجار الديمغرافي، الكوارث المناخية، التعديل الوراثي للبشر، انصهار الثقافات وغيرها من الأمور، فالبشرية تقف عند نقطة انعطاف حاسمة ونحن كنوع نواجه تحولاً عميقاً وفريداً في تاريخ البشرية ونسافر بسرعة خطيرة جداً إلى عصر الحدود القصوى - الحدود القصوى للثروة والفقر للتكنولوجيا، للأسلحة، للعولمة كما يرى جيمس مارتن²، فإذا وجهنا الفكر الإنساني لدعم المكاسب الضخمة، فسيكون أماننا مستقبلاً رائعاً، أما إذا تعطل الفكر فلا ندري أي مستقبل سنواجه وعلى أي شاكلة سنكون؟

هناك تكنولوجيات كثيرة وقدرات استثنائية جديدة تتزايد في المستقبل، نحن أمام قرن حرج جداً، ولا ننكر أنّ الفكر الإنساني وصل بالتكنولوجيا إلى مراحل متقدمة جداً من خلال طرحه للبدايل في مختلف حقول العمل، وتقديمه لحلول كثيرة لبعض المشاكل الحضارية التي عانت منها المجتمعات البشرية عن طريق وضع الاستراتيجيات، وتقديم النماذج التربوية القادرة على ترشيد الأخلاق والأعمال وزيادة وعي الإنسان بما يحيطه وإدراك الفرد لأبعاده ووجوده وعلاقته بالكون وبأخيه الإنسان وقدرته على إخراج الفرد منا من ظلمات الجهل إلى أنوار العلم والفهم، مما يسهل تحقيق الأهداف المرجوة.³

¹ - جيمس مارتن، معنى القرن الحادي والعشرين، ترجمة: أحمد رمو، دمشق، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، 2011م، ص7

² - المرجع السابق، الغلاف

³ - ماهو الفكر - <https://mawdoo3.com/>

فهل يستطيع الفكر الحفاظ على هذا الموروث الحضاري الجديد والمتمثل في التكنولوجيا المميزة للقرن الحادي والعشرين والبقاء على وتيرة التغيير والإبداع ويرقى إلى فضاءات أخرى جديدة يضمن بها سلامة النوع البشري؟ أم أنّ الفكر يتعطل ونصبح أمام عالم تكثر فيه البلاءة كما يقول ألبرت أنشتاين:

"أخشى اليوم الذي ستجاوز فيه التكنولوجيا تفاعلنا البشري فإنه سيكون للعالم جيل من البلاءة"⁴

والبلاءة هنا لا تعني الجهل بل الالفكر الذي تنطوي عليه الأفكار الجاهزة كما يعرفها ميلان كونديرا⁵

أولاً: وقود الفكر

لو نرجع إلى التاريخ أو نتأمل حياة الإنسان منذ وطأت قدماء البسيطة، لابد أن عي شيئاً واحداً وهو أنّ هذا المخلوق ذو ميزة خاصة رغم أننا نجد جميع الكائنات المادية، سواء الفيزيائية أو النباتية أو الحيوانية وحتى الإنسان تتميز من نفس الذرات، لذا نجد السمة الخاصة التي يتميز بها الإنسان هي ما تجعله فريداً من نوعه فالكائنات تختلف نوعاً أو درجة في سلم الوجود؛ فالتراب يوجد والحيوان يحيا في حين أنّ الإنسان يفكر⁶، إذن السمة الخاصة هنا هي التفكير، فالإنسان يحمل فكراً، وكلما فكر الإنسان كلما كتبت صفحة جديدة للتاريخ كلها تطورات وتغيرات، أما الكائنات الأخرى تبقى سمة حياتها في حدود نسق واحد وطريقة ثابتة، فلو لاحظنا مثلاً حياة النحل رغم ما تمتاز به من خصوصية ودقة في نمط عيشه وبنائه لخيلته، فما يفصح عنه العلماء في ذلك يبقى ثابتاً من امتصاصه لرحيق الأزهار إلى انتاجه العسل والشمع، فطريقة عيشه لا يشوبها التغيير ولو مر على ذلك آلاف السنين والمثال ينطبق على سائر الكائنات الأخرى، أمّا الإنسان نجد حياته في تطور مستمر، سريع الحركة في التغيير، له من وقود التفكير ما لا نستطيع تحديد كميته في انتاج فكر في كل محطة فهو خليفة الله في الأرض سخرت له كل ثروات هذا الكون الفسيح؛ كان أحد الزملاء كلما تحدثنا عن الحياة وكيف للإنسان أن يعيشها وكيف تكون له بصمة إيجابية فيها، يروي لي قصة لا أعلم مدى صحتها حيث يقول لي: إنّ هناك أناساً حين يموت لديهم شخص ما يقومون بكتابة المدة التي كان فيها منتجاً مبدعاً مساهماً في التغيير والإعمار على شاهد قبره حتى ولو كانت المدة يوماً واحداً؛ ويقول لي فماذا قدمت أنت ماذا نكتب على شاهد قبرك يوم ينقضي بك الأجل، أسكت برهة وأحاول الإجابة بتشغيل عقلي وجعله يفكر، فالمشكلة هنا أكبر من الإجابة عن هذا السؤال !

⁴- أقوال وحكم ألبرت أنشتاين، <https://mtwersd.com/proverbs-einstein/>

⁵- عبد السلام بن عبد العالي، الفلسفة فناً للعيش، دار توبقال للنشر، المغرب، ط1، 2012، ص13.

⁶- د. يوسف تيبس، التصورات العلمية للعالم (قضايا واتجاهات في فلسفة العلم المعاصرة)، ابن النديم ودار الروافد الثقافية ناشرون، الجزائر- لبنان، ط1، 2014م، ص470.

قبل كل شيء نساءل: هل في حوزتنا الوقود الكافي لبناء أفكار قادرة على رسم معالم حياة تكتمل فيها صورة الحضارة الإنسانية، ولماذا نجعل الآخرين يفكرون بدلا منا ونكتفي باستهلاك أفكارهم بل ونكتفي بأخذ قشورها فقط.

إذا أردنا وقودا لفكرنا فلا خير من وقود دعانا إليه ديننا الحنيف، فهو يحثنا على العلم واكتشاف أسرار الكون، ونذكر أثر ذلك على الفكر وعلى السلوك وعلى العلاقات الاجتماعية وتقدمها، خاصة ونحن نعلم أنّ الفكر هو الذي يقود التقدم، فلا يمكن لمجتمع أن ينهض ما لم يتقدم الفكر لديه، ويكون في وسعه توفير الأسس المنهجية والإصلاحية لذلك⁷، فالله عزّ وجل "زود الإنسان بطاقات ذهنية فطرية قادرة على التحليل والتركيب والاستفادة من الخبرات المختلفة... وهذه الإمكانيات قد تختلف من شخص إلى آخر اختلافا عظيما، لكنّها على مستوى الشعوب متقاربة -في الأحوال العادية- إلى حد بعيد"⁸، إضافة إلى هذا يمكن توفير هذا الوقود من خلال التنقيب في ملكة العقل وعصرها جيدا باستعمال أساليب وتقنيات أصبحت الآن أكثر توفرا من خلال التكنولوجيا المتاحة وتسمح في تعزيز قدرة الفرد منا على التفكير، مع مراعاتنا في استخدام منهجية صحيحة تضمن خلو وقود الفكر من الشوائب حتى لا يتعطل محرك التفكير لدينا فالإنسان يملك طاقة ذهنية، وهو في النهاية يحوز "كمية معينة من وقود التفكير فينبغي للمرء أن يكون حاذقا في صرف طاقته الذهنية في المواد المجدية، يقول ابن القيم في فصل عقده في كتابه "الفوائد"، في بيان أساس هذا المفهوم (أصل الخير والشر من قبل التفكير، فإنّ الفكر مبدأ الإرادة)⁹ مما يفسح ذلك المجال أمام حركة سريعة ومتنامية لتفاعل الإنسان مع تطورات عصره، ومراعاة بطبيعة الحال لقيمه ومبادئه، فأنفع الفكر كما قسم ذلك ابن القيم: الفكر في مصالح المعاد، وفي طرق اجتلابها، وفي دفع مفسد المعاد، وفي طرق اجتنابها، وفكر في مصالح الدنيا، وطرق تحصيلها، وفكر في مفسد الدنيا وطرق الاحتراز منها، وبذلك تكون أقسام التفكير ثمانية وعليها دارت أفكار العقلاء¹⁰، خاصة إذا كان هذا التفكير إبداعيا فمؤثر حياة الأمة كما قال طه عبد الرحمن هو الإبداع باعتباره السبيل الوحيد لبقائنا أحياء¹¹

ثانيا: البلاهة مظهر للالفكر

كما قلنا سابقا لا نعني بالبلاهة هنا الجهل بل الالفكر القائم على الأفكار الجاهزة، نحن نسمع أحيانا في معاملاتنا وتساؤلاتنا مع بعضنا البعض عن محرك جوجل كحل سريع لكل عارض يعترضنا فقد أصبح هذا المحرك بالقول الشائع بين فئة واسعة من أفراد مجتمعنا الجزائري (بعمي جوجل) الذي يجيب على كثير من

⁷ ص 47، عبد الكريم بكار، مدخل إلى التنمية المتكاملة

⁸ م.س، ص 48

⁹ - الماكريات ص 41

¹⁰ - الماكريات، ص 41

¹¹ - مدخل إلى فكر طه عبد الرحمن، ص 26

تساؤلنا، ولا يمكن تصور حال كثير من الأسر الجزائرية في الآونة الأخيرة من دون انترنت ففيها الأفكار الجاهزة في الطبخ والنفع وفي كثير من النشاطات، أنا لا أنكر هنا الجانب الإيجابي في ذلك لكن أقف عند استخدام الأنترنت للفرد منا خاصة الفئة العمرية الصغرى - هل يتعطل الفكر لديها أم لا؛ نلاحظ تسارعا رهيبا في الآونة الأخيرة في اقتناء الهواتف الذكية في السوق الجزائرية إلى حد الجنون حيث وصل عدد الهواتف النقالة سنة 2013 إلى ثلاثة وثلاثين مليون هاتفا تحتل بذلك المرتبة الثالثة والثلاثين عالميا بنسبة تصل إلى 94.2 بالمائة¹²، نجد كثيرا من الناس يشترون هواتف ذكية ولو على حساب قوتهم، يزودون شبكة الأنترنت ولا يزودون بيوتهم بأبسط الضروريات، هناك تغير في سلوك الفرد وفي المجتمع برمته، فالمسألة ليست في حدود رواج سوق الهواتف وفي القيمة الاقتصادية لذلك، فنحن أمام تحول لجيل كامل من خلال شاشة هاتف لا تتعدى 6.2 بوصة (بقياس من الزاوية إلى الزاوية)، أصبحنا من خلال هذه الشاشة الصغيرة نهتم بكل ما يجري أو كما يصف ذلك الدكتور إبراهيم بن عمر السكران بالماجريات، ماذا جرى بالأمس واليوم والآن لا يهم الموضوع والتوافه تتصدر المشهد، نحن نعيش حالة فراغ رهيب في توظيف العقل لدينا بالأمس القريب كان عمي الحاج أحمد رحمه الله تعالى يبيع في بقالته بأسلوبه المعتاد في عد حساب ما يبيعه ويشتريه بتوظيف حاسبته التي وهبه الله إياها في عقله دون استخدام لأي حاسبة إلكترونية أو لحاسوب يسجل عليه حساباته أو ماشابه، فذاكرته وعقله اللذان رودهما خلال سنوات والكثير ممن يرتادون محله يشهدون على ذلك يمتلك ذاكرة قوية وحساب سريع ودقيق يبعث على الدهشة، أنا لا أنقص هنا من أهمية التكنولوجيا لكن أنوه إلى ملكة وهبنا إياها الله عز وجل أصابها العطب تحتاج منا الدربة والترويض فحين تناولنا على عديد الأجهزة الإلكترونية واهتممنا بالأفكار الجاهزة بدأ العقل بالذوبان وأصبحنا من البلاءة قاب قوسين أو أدنى.

ثالثا: المواطن الجزائري يفكر:

كنا ولا زلنا نسمع بين الفينة والأخرى على وسائل الإعلام الجزائري عن مواطن أو مواطنة جزائرية ابتكروا شيئا أو أبدعوا في مجال معين، أو تحصلوا على مرتبة أولى عالميا في نشاطات مختلفة خاصة منها العلمية - العقل الجزائري- بخير والحمد لله، لكن عندما تبحث عن أثر هذا العقل أو الفكر في الواقع تكاد تجده لعدة اعتبارات قد لا نحصيها في هذه الأسطر، إلا أننا نركز في هذا الجانب على المدرسة الجزائرية باعتبارها أهم محطة نرعى فيها العقل الجزائري وننمي ليكون فاعلا في المستقبل قادرا على البناء والتشييد والإبداع في المجالات كلها، فالسؤال المطروح هنا هو: هل المدرسة الجزائرية تهتم بتنمية التفكير لدى الطفل؟ وهل تمتلك من الوسائل والمناهج ما يسهل عليها ذلك؟ وكيف تستطيع المدرسة الجزائرية تنمية الفكر لدى الأطفال في ظل المغريات والملهيات

¹² - قائمة الدول حسب عدد الهواتف المحمولة <https://ar.wikipedia.org/wiki/المحمولة>

التي تقدمها التكنولوجيا؟ وهل تعي المدرسة الجزائرية تصاعد وتيرة البلاءة عند كثير ممن يستعملون هذه التكنولوجيات المختلفة؟

"إنّ المطلع على الإنتاج الفكري الجزائري يلاحظ عدم تنظيم هذا الإنتاج في شكل مشروع، وهناك من يفسر ذلك من خلال زاويتين اثنتين إحداهما تاريخية، والأخرى ثقافية إيديولوجية"¹³، "لقد كان التنافس في الماضي على مستوى الفكر، إذ يسعى الكل إلى التفوق العلمي والفكري، لذا كثرت المسابقات والإبداعات العلمية والثقافية، أمّا الآن فأضحى التنافس على مستوى الجسد، فانتقل الإنسان من الاهتمام بالذات الذي يعتبر منبع التأمل الفلسفي، إلى الهوس بالجسد"¹⁴، إضافة إلى ذلك هناك عبثية في التربية لم تكن غايتها جعلنا خيرين وحكماء، "إذ تشير أغلب الدراسات العربية الجارية في ميدان التنشئة الاجتماعية شيوع أنماط التنشئة المتسلطة المحافظة والتي تسعى إلى بناء شخصيات مطوعة تميل إلى الإذعان والتبعية ينعدم فيها الحوار والنقد والمناقشة والإبداع"¹⁵، وأنا هنا أفتح قوسا لأتحدث عن النقطة الأخيرة وهي مسألة الإبداع التي تكاد تنعدم داخل المدرسة الجزائرية أتحدث عن نفسي وأنا الذي تدرجت عبر مراحلها من الابتدائي حتى الجامعة أحاول أن أجد إجابة لهذه المسألة...!؛ ربما المؤسسات الاجتماعية هي السبب في قتل الإبداع والاكتشافات العلمية فهي تكتفي فقط بتوجيه العلم نحو طرق لا يرسمها لنفسه، لننظر الى المؤسسات الاجتماعية السانغفورية كيف وجهت العلم؛ لننظر الى ما وصلت إليه رغم أنّها تشبه إلى حد كبير مدارسنا من حيث أعداد التلاميذ داخل القسم الواحد، حتى أنّ المجتمع السانغفوري هو مجتمع بسيط في طريقة عيشه وفي تربيته لناشئته، وليس بالمجتمع الخارق؛ "فوزارة التعليم بسنغافورة كرست جهودها لتحقيق الجودة وبناء نظام تعليمي يقوم على معلمين تم اختيارهم بعناية وتدريبهم ليكونوا قادة في الميدان التربوي وموجهين للتلاميذ، وحرصت على الربط المتقن بين نظام التعليم والاقتصاد تماشيا مع الاتجاهات العالمية ومتطلبات عصر المعرفة فاستحدثت أدوارا جديدة للإشراف والتوجيه منها التوجيه التقني والاستعانة بمدرّبين أجانِب من ذوو الخبرة لصقل مهارات اليد العاملة والتوجيه المهني للطلاب خلال المرحلة الثانوية حيث يتعرف الطلاب على الاستراتيجيات التي من شأنها إكسابهم المهارات والمعرفة لتخطيط وإدارة تعلمهم وبالتالي تحدد مستقبلهم المهني واعتبار ذلك من حق أي طالب وواجبا وطنيا يؤديه المعلم اتجاه الجيل الجديد للأمة"¹⁶؛ فمالذي ينقص مدرستنا الجزائرية حتى نستورد المناهج التربوية والتعليمية بين الفترة والأخرى، لماذا نقوم بإسقاط الثقافة الاستهلاكية الناتجة عن العولمة حتى في مجال التربية والتعليم، لا بأس أن نلبس ونأكل ونستعمل ما يصنع الغرب، لكن ليس إلى درجة أن نستهلك

¹³- بوقاف، عبد الرحمن، غياب المشاريع الفكرية في الجزائر، الفلسفة في الوطن العربي في مائة عام: أعمال الندوة الفلسفية الثانية عشر، القاهرة، مركز دراسات الوحدة العربية، 28 فبراير-2006، ص361.

¹⁴- د.يوسف تيبس، التصورات العلمية للعالم (قضايا واتجاهات في فلسفة العلم المعاصرة)، م.س، ص466

¹⁵- مجموعة باحثين، العولمة وتأثيرها على ثقافة الأسرة الجزائرية المعاصرة، تنسيق د. نسيبة فاطمة الزهراء، ج2، ط1، 2018، عمان- الأردن، دار الأيام للنشر والتوزيع، ص16.

¹⁶- هند سعيد الزهراني، الإشراف التربوي في سنغافورة، كلية التربية- المجلة العلمية، جامعة أسيوط، المجلد: 33، العدد: الثامن، أكتوبر 2018، ص416.

مناهجهم التربوية والتعليمية، نحن لا نريد أن نكفن أنفسنا بكفن البلاهة أملا في حياة هادئة بعض الشيء، أو أن نهجر التفكير بالإجمال، لتتعلم من سانغفورة عزيزي القارئ فالمجتمع السانغفوري مجتمع ملتحم لا من حيث ترابطه داخل المجتمع الواحد أو من حيث قيمه المبنية على الاحترام والانضباط وتحمل المسؤولية، نحن نعلم أنّ انفصال سانغفورة عن ماليزيا كان بمثابة القشة التي قسمت ظهر البعير؛ لكنّ النقاط التي تحدثنا عنها عادت الطريق لتحقيق المعجزة، ولنفتح قوسا آخر فيما يخص النظام التعليمي في سانغفورة باعتباره أحد أهم الأسباب التي رسمت ملامح التقدم والبناء، والفضل يعود هنا إلى وزارة التربية التي أوكل إليها أمر إدارة كل المؤسسات التعليمية، وإذا أردنا الاطلاع على المناهج التعليمية يكفي أن نزور موقع وزارة التربية السانغفوري، حتى أن هناك عديد البحوث اهتمت بما وصلت إليه مناهج التعليم السانغفوري من رواج في العالم؛ مثلا لدينا كتاب الكفايات الأساسية لمدرس القرن 21 للدكتور رياض بن علي الجوادي الذي تحدث في أحد أقسامه عن أهم الكفايات التي يتمتع بها المدرس السانغفوري في إطار ما وضعه النظام التعليمي الخاص بسانغفورة بعد تخرجه وقد وزّعت هذه الكفايات المهنية إلى ثلاثة مجالات وهي:

أولا: الممارسات المهنية: المبنية على رعاية جيدة للطفل مع تعليمه التعليم الجيد وإكسابه المعرفة اللازمة حيث الإتقان في الموضوع، والتفكير التأملي والتفكير التحليلي، والمبادرة والتعليم الإبداعي، والتركيز على المستقبل.

ثانيا: القيادة والإدارة: المبنية على كسب القلوب والعقول بناء على فهم البيئة وتطوير الآخرين، ثم يأتي العمل معهم بناء على الشراكة مع الأسرة والعمل في فريق.

ثالثا: الفعالية الشخصية: بناء على معرفة الذات والآخرين من خلال ضبط النفس والاستقامة والنزاهة الشخصية، وفهم الآخرين واحترامهم، مع مرونة وقدرة على التكيف¹⁷.

إنّ ما نسميه تعليما اليوم، حتى في "أفضل" مدارسنا وكلياتنا إلا مفارقة تاريخية ميؤسا منها إنّ الآباء يتطلعون إلى التعليم ليهيئ أبنائهم للمستقبل والمعلمون يحذرون من الإفتقار إلى التعليم لسوف يشل من فرص الأولاد في عالم الغد، والوزارات.. ووسائل الإعلام -كلها تحت الشباب على البقاء في المدارس مصرة على أنّه اليوم أكثر من أي وقت مضى، يكاد يكون مستقبل الفرد كله متوقفا على التعليم"¹⁸، إذا لابد للمدرسة الجزائرية أن تعي حجم الخطورة الذي قد يسببه أي طارئ كالذي فرضته الجائحة (كوفيد19) من أن تبعد الشباب عن المدرسة حيث نرد العلم، ولتبادر إلى وضع مناهج فعالة قادرة على التفكير والإبداع والتغيير في قرن ميزته الأساسية هي التغيير والإبداع؛ المواطن الجزائري مؤهل لذلك لا من حيث الأرقام أو من حيث المؤهلات، قادر على الإبداع في

¹⁷- د.رياض بن علي الجوادي، الكفايات الأساسية لمدرس القرن 21، دار التجديد للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، عمان- الأردن، ط1،

1439-2018م، ص64.

¹⁸- ألفين توفلر، صدمة المستقبل، ص419.

المجالات كلها مادام يفكر، فما يلزم هو إنشاء مدرسة تحفظ لمستقبل هذا الجيل تفكيره ليكون صورة حقيقية تكمن فيها خلاصة الابداع على أرضه لا على أرض غيره ينفع بذلك نفسه وأمته.

رابعا: مدرسة المستقبل عصارة الفكر الإبداعي:

يجب على المدرسة الجزائرية المستقبلية أن تخلق نظاما تعليميا يناسب عصر التغيير والإبداع هذا أو ما يطلق عليه عصر ما فوق التصنيع، وللوصول إلى ذلك لابد من وسائل وغايات لبناء مستقبل زاهر مع استفادة من أخطاء الماضي، وبسرعة "فبيئتنا تتغير الآن بمعدل غير مسبوق، تغيرت بيئتنا فجأة وبعنف، منتجات العلم والتكنولوجيا قد حورت وتحور كل شيء من حولنا، إننا نحيا الآن بيئة جديدة تماما لم تكن موجودة منذ قرن مضى، فهل علينا أن نتحور لنلائمها، هل سيلزم هنا أن يتحور "الدكاء" حتى يمكنه أن يتعامل لا مع الطبيعة كما خلقها الله، وإنما مع ما صنعه الإنسان؟ لكن هذا التحوير لابد أن يكون سريعا. "ولابد أيضا من تنمية التفكير وتطويره فليحوية التفكير سلطانا أعظم فلنفكر في مدرستنا المستقبلية، كيف تكون وما الذي يمكنها تقديمه وهل ستسبق الزمن لتقليص الهوة بيننا وبين الدول المتقدمة، هل ستقدم لنا جيلا مفكرا مبدعا قادرا على كسر نمط الحياة والعقلية السلبين، فهذا الجيل سيجد نفسه في مواجهة واقع جديد قد لا يستطيع التكيف معه، لابد هنا من خبرة ندرس من خلالها التغيير المتسارع والمحير، ولابد هنا أيضا من تكاتف كل النظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعقلية في بناء مدرسة المستقبل، فإذا كان الواقع يعكس صور العوز والمرض فلا ننتظر تحصيل العلم أو بناء مدرسة المستقبل في مجتمع فقير عليل.

التفكير في المستقبل بصفة عامة وبمستقبل المدرسة بصفة خاصة أمر لابد منه "لأنّ التفكير المستقبلي لمجتمع ما يعني أنّ هذا المجتمع ينتظر ما يسمى تغيير المصادفة أو المستقبل لأعظم قياسا على ما هو عليه"؛ لنطرح السؤال الآتي: على أي شاكلة ستصبح المدرسة عام 2100 أو في عام 2500 أو في عام 3000م؟ كيف ستغير المنظومة التربوية والتعليمية آنذاك، عندما نسمع عن الأنترنت ثلاثية الأبعاد يتبادر إلى مخيلتي نمط التدريس في واقع افتراضي خارج إطار الهاتف والحاسوب؛ فلنتخيل معا صورة المدرسة من خلال الأنترنت ثلاثية الأبعاد، هل في الإمكان بناء جدران بجهد منا جميعا من خلال هذه الأنترنت حتى تؤدي هذه الجدران وظيفتها كحاجز حدودي لما قد يتسلل إلى الداخل ويكون بمثابة الفيروس الذي يضرب مناهجنا التعليمية، ونضمن لهذه المؤسسة التعليمية بقاءها حتى ولو كانت افتراضية، نحن لا نستطيع لمسها يكفي أن نحس بها ونرى أنّها تقوم بدورها على

أكمل وجه؛ المدرسة اليوم لها جدران تحيط بها وتؤدي وظيفتها بفضل بنيتها الفيزيائية وبضل القبول والإقرار الجمعي للأفراد الذين يتصرفون جميعا وكأنّ هذه الجدران لها وضع معين بحيث تصح مع ذلك الوضع وظيفة معينة¹⁹.

تسعى الجزائر في المدة الأخيرة إلى تجسيد مدارس رقمية خلال الدخول المدرسي 2022/2021 إذ تم تدشين حوالي خمسين مدرسة إبتدائية رقمية موزعة على إحدى وعشرين ولاية على أن يتم تعميم المشروع على الولايات الأخرى²⁰، إذن المدرسة الجزائرية من خلال هذا المشروع أمام رهان خطير جدا فالموضوع يحمل عملة أحد أوجهها يعتبر فرصة والآخر يعبر عن خطر، إذا تحدثنا عن الفرصة فهي مواكبة التكنولوجيا سرعة وتغييرا، أما الخطر يكمن في أثر هذه التكنولوجيا على التفكير وعلى أشياء أخرى على سبيل المثال لا الحصر- الكتابة- فنحن نعلم السر المكنون في القلم، حتى أنّ عديد المعلمين والأساتذة في مدارسنا يشكون من سوء الخط لدى الكثير من التلاميذ وحتى لدى الطلبة في الأطوار المتقدمة، وقد تكون التكنولوجيا أحد الأسباب المباشرة في عدم تمكن تلاميذنا من الخط لاتكالمهم على الحواسيب والطابعات الالكترونية وغيرها... إذن فتأسيس مدرسة المستقبل هو من الأمور الخطيرة جدا فنحن مطالبون من خلالها على الأقل ضمان سمات المواطنة والقيم التي يرنو إليها مجتمعنا وأشياء أخرى لا نريد لها أن تنطفئ، فالمدرسة مدرسة سواء كانت افتراضية أم واقعية فأهدافها ثابتة ولن تتغير.

في الأخير يبقى الحديث عن الفكر مهما ولو قال أحدهم "أننا وصلنا إلى نهاية النظريات ونهاية التاريخ ونهاية الافكار والاستسلام الجبري للمستقبل هي ملامح مهمة في حياة عصر مختلف عن عصر التطلع والكتابة والتفاؤل، وهي نذير ركود فكري كبير يتبعه ركود بقية جوانب الحياة" إننا اليوم أمام عالم تكثر فيه عملية إشباع للغرائز لما يمتلكه ممن لهم سلطة تسيير هذا العالم من إمكانيات مادية هائلة على غرار سلطتهم على الإعلام وعلى التكنولوجيا، وكأننا بهذه الغرائز تشبع وتصل إلى مرحلة الإدمان حيث أصبح الدماغ في حالة من الخمول ليس له القدرة على إفراز ثقافة ترفعه من مرتبة إشباع الغرائز من خلال تنشيط الفكر ويكون بذلك كما يرى الفيلسوف الفرنسي إدغار موران: " لا تتحقق إنسانية الإنسان بشكل كامل إلا داخل الثقافة، ولا توجد ثقافة بلا دماغ بشري) باعتباره اللة البيولوجية المسؤولة عن الفعل والإدراك والمعرفة والتعلم)، كما لا وجود للفكر (باعتباره القدرة على الوعي والتفكير) إلا بالثقافة، إنّ الفكر البشري يولد ويتحقق داخل العلاقة : الدماغ- الثقافة، وما إن يولد الفكر حتى يرتد على الدماغ ليحدد طريقة اشتغاله، هناك إذن ثالوث دائري يجمع بين الدماغ- الثقافة- الفكر. حيث لا

¹⁹- جون سيرل، العقل واللغة والمجتمع (الفلسفة في العالم الواقعي)، ترجمة سعيد الغانمي، الدار العربية للعلوم- ناشرون، ومنشورات الاختلاف، والمركز الثقافي العربي، بيروت والجزائر والمغرب، ط1، 1427هـ - 2006م، ص185، 186.

²⁰ - <https://www.echoroukonline.com/>

غنى لأي طرف من الأطراف الأخرى، الفكر إذن هو نتاج للدماغ الذي يفرز الثقافة التي لا يمكن لها أن تكون إله بالدماغ²¹

ونختم بما قاله عبد اللطيف شراره في كتابه حكمة التاريخ أنه " يكاد إجماع المفكرين القدامى والمحدثين، ينعقد على أنّ قضية المصير تجد حلها الحقيقي في عالم الفكر، ولا سبيل إلى حلّها إلا عن طلائق الفكر"²².

المراجع:

- 1- هند سعيد الزهراني، الإشراف التربوي في سنغافورة، كلية التربية- المجلة العلمية، جامعة أسيوط، المجلد: 33، العدد: الثامن، أكتوبر 2018.
- 2- رياض بن علي الجوادي، الكفايات الأساسية لمدرس القرن 21، دار التجديد للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، عمان- الأردن، ط1، 1439هـ-2018م،
- 3- ألفين توفلر، صدمة المستقبل،
- 4- جون سيرل، العقل واللغة والمجتمع (الفلسفة في العالم الواقعي)، ترجمة سعيد الغانمي، الدار العربية للعلوم- ناشرون، ومنشورات الاختلاف، والمركز الثقافي العربي، بيروت والجزائر والمغرب، ط1، 1427هـ - 2006م،
- 5- إدغار موران، تربية المستقبل (المعارف الضرورية السبع لتربية المستقبل)، ترجمة: عزيز لزرق ومنير الحجوجي، دار توبقال للنشر ومنشورات اليونيسكو، المغرب وفرنسا، ط1، 2002م
- 6- عبد اللطيف شرارة، حكمة التاريخ، الشركة العالمية للكتاب، بيروت- لبنان، 1990م
- 7- جيمس مارتن، معنى القرن الحادي والعشرين، ترجمة: أحمد رمو، دمشق، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، 2011م،
- 8- عبد السلام بن عبد العالي، الفلسفة فنًا للعيش، دار توبقال للنشر، المغرب، ط1، 2012،
- 9- يوسف تيبس، التصورات العلمية للعالم (قضايا واتجاهات في فلسفة العلم المعاصرة)، ابن النديم ودار الروافد الثقافية-ناشرون، الجزائر- لبنان، ط1، 2014م،
- 10- بوقاف، عبد الرحمن، غياب المشاريع الفكرية في الجزائر، الفلسفة في الوطن العربي في مائة عام: أعمال الندوة الفلسفية الثانية عشر، القاهرة، مركز دراسات الوحدة العربية، 28-فبراير-2006،
- 11- يوسف تيبس، التصورات العلمية للعالم (قضايا واتجاهات في فلسفة العلم المعاصرة)،
- 12- مدخل إلى فكر طه عبد الرحمن، ص26
- 13- مجموعة باحثين، العولمة وتأثيرها على ثقافة الأسرة الجزائرية المعاصرة، تنسيق د. نسيبة فاطمة الزهراء، ج2، ط1، 2018، عمان- الأردن، دار الأيام للنشر والتوزيع،
- 14- <https://www.echoroukonline.co>
- 15- قائمة الدول حسب عدد الهواتف المحمولة https://ar.wikipedia.org/wiki/قائمة_الدول_حسب_عدد_الهواتف_المحمولة
- 16- <https://mawdoo3.com/> - ماهو الفكر
- 17- <https://mtwersd.com/proverbs-einstein/> - أقوال وحكم ألبرت أينشتاين،

²¹ - إدغار موران، تربية المستقبل (المعارف الضرورية السبع لتربية المستقبل)، ترجمة: عزيز لزرق ومنير الحجوجي، دار توبقال للنشر ومنشورات اليونيسكو، المغرب وفرنسا، ط1، 2002م، ص51، 50.

²² - عبد اللطيف شرارة، حكمة التاريخ، الشركة العالمية للكتاب، بيروت- لبنان، 1990م، ص32.